قراءة فى كتاب
العولمة والواقع الجديد

قراءة: أ. وليد عبد الماجد كساب(*)

منذ أن دعت الولايات المتحدة إلى كتابها ـ أو العولمة كما أطلقت عليه ـ وارتضته نظاما عالميا جديدا والعالم يعيش حالة من التخبط والفوضى.. وبدت العولمة فى ثوب قشيب يحيط بها الغموض تارة.. وتبدو نواياها السيئة تارة أخرى.. وبقليل من التأمل نرى أن العالم على اختلاف أيدلوجياته ومشاربه قد تباينت نظرته للعولمة ما بين مؤيد لها يلتمس فيها طوق النجاة للبشرية ، وبين ناقم عليها يرى فيها الداء العضال ، بينما يقف التيار الوسط ليرمق العولمة بنظرة تجمع بين التفاؤل والحذر.

والكتاب الذى بين أيدينا يعرض لرؤية محاضير محمد للعولمة من خلال مجموعة أحاديث وكتابات،وهى بلا شك تمثل أهمية كبيرة لأنها صدرت من مفكر سياسى واقتصادى مرموق ،استطاع أن ينهض ببلاده من مستنقع التخلف والتأخر إلى مصافّ الدول المتقدمة تنافسها وتتحداها.

ويقع الكتاب الصادر عن دار بلانك PELANDUK بماليزيا (١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م) فى (٢٥٠) صفحة من القطع المتوسط ، ويضم الكتاب - الذى هو فى الأصل مجموعة من الكتابات والأحاديث التى ألقاها السيد محاضير فى مناسبات - فى مجمله عشرين موضوعا مختلفا كلها تدور حول العولمة.

الموقف من العولمة

يرى محاضير محمد أن قضية العولمة إن كانت قد فرضت نفسها بقوة فى هذا الوقت إلا أن ذلك لا يعنى أن نقبلها جميعاً خائفين،بل يجب أن نتأكد أولاً أنها

(*) الباحث برابطة الجامعات الإسلامية، وعضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية.

ستكون لصالحنا فردياً وجماعياً قبل أن نقبلها،كما يجب علينا أن نستخدم خبراتنا فى ابتكار فكرة العولمة وتطويرها لكى نخفض السلبيات التى تفرزها ونساعد على تحقيق الخير الذى تعد به العولمة.

وكما يحدث لأى نظام يخترعه إنسان فإن الفائدة تأتى فقط إذا فهم النظام فهماً صحيحاً وأدير إدارة راشدة ،لأن دواعى الفشل فى المجتمعات الإنسانية موجودة دائماً،وهذه دائماً تخل بالنظام بغية جنى عوائد عالية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.

ويضرب السيد محاضير مثالاً للظلم الفادح للعولمة فى أرجاء العالم حيث يقول: إن سطح الملعب مصطلح اخترعه الأغنياء للتدليل على المنافسة المنصفة،ولكن استواء الملعب ليس كافياً وحده لحصول العدالة والإنصاف،بل يجب على اللاعبين أنفسهم أن يكونوا على قدم المساواة والقدرة،فالمعاقون لا يمكنهم منازلة الأصحاء،كما أن ملاكم الوزن الثقيل لن يحرض على مواجهة ملاكم وزن الريشة مهما كانت قدراته الجسمانية.

إذن فالعولمة كما يراها محاضير محمد هى مفهوم اخترعة الإنسان ومن ثم يفتقد إلى الكمال الإلهى ، فكما إنه بإمكانها أن تجلب كثيراً من الخبرات،فإنها قد تكون لها بعض السلبيات التى تأتى فيما بعد بنتائج مأسوية للغاية.

الكفر بالعولمة

وفى تحد واضح وبشجاعة معهودة يعلن محاضير محمد كفره الواضح بالعولمة التى أطلق عليها مصطلح " الدين الجديد" فيقول إن الحقائق المقدسة للدين الاقتصادى الجديد،والذى يعرف باسم العولمة أو آلية السوق أو الليبرالية الجديدة تبدو بسيطة جداً وفى غاية الوضوح... والعقوبة التى تنتظر قائد أية دولة من الدول النامية لا يسبح بحمد هذه العولمة وحقائقها المقدسة صباح مساء ـ معروفة جداً.. لكن يجب على أن أعتذر لأولئك الذين يجرح مشاعرهم تلك الحقيقة المرة وهى أننى لست من المؤمنين بهذا الدين الجديد.

آسيا والتضرر من العولمة

يتحدث المؤلف فى كتابه عن العولمة وتأثيراتها على آسيا التى ينتمى إليها- وينتقد الدول الغنية المتوحشة التى كانت سبباً فى الأزمة الاقتصادية التى مرت بها دول شرق آسيا نظراً للتدفق الحر لرأس المال الأجنبى خارجاً،وبدأت الأزمة بالتلاعب فى قيمة عملات هذه الدول،وأدى انخفاض قيمة العملات إلى انخفاض الاستثمارات الأجنبية ومن ثم إلى انسحاب رأس المال الأجنبى تفاديا لخسارات أكبر وانهيار السوق والعجز عن سداد الديون،وبالجملة أدت الأزمة إلى فشل النظام المصرفى.

الإسلام والعولمة

وتحت عنوان " الإسلام والعولمة " يتحدث محاضير محمد عن مستقبل الدول الإسلامية فى ظل العولمة حيث يرى أن المسلمين يواجهون تحدياً كبيراً يتمثل فى الصورة الحالية والمتوحشة للعولمة التى تهدد عقيدتهم،بل مع كل تلك الأخطار لا يجب اللجوء إلى أعمال عنف فردية تسبب حرجا شديدا للإسلام وتعطى انطباعا سلبيا عن هذا الدين الذى يدعو إلى التسامح والتراحم وقبول الآخر والانفتاح الذى لا يخل بالثوابت والقيم الإسلامية،وعلى المسلمين أن يخططوا من أجل تنمية أمتنا حتى نكون أقوياء بتكنولوجيا المعلومات وتحديات عصرها.

ويلقى محاضير محمد باللائمة على هؤلاء المتواكلين الذين يمثلون عبئاً كبيراً على دينهم،يقول " إن الله لا يساعد الذين لا يساعدون أنفسهم أو بالأحرى الذين لا يعرفون من معانى التوكل إلا مقولة اعقلها وتوكل.. نحن فى حاجة لمساعدة أنفسنا،وفى حاجة إلى أن نعقل جمالنا.. نعم يمكننا أن نستشهد بالقرآن والحديث،وأن نتجادل حول المعنى،ولكن مهما كان نوع الجدل فإنه يجب علينا أن نعمل لإضعاف تحدى العالم المتعولم ،ويمكن أيضا أن نسودهم،ونستعيد العصر الذهبى للإسلام الذى شهد سيادة المسلمين وريادتهم للعالم ، ليس فى مجال واحد فحسب ؛ بل فى مجالات شتى.

ويقرر الكاتـب حقيـقة مهـمة هى أن العـالم الإسلامى لا يمكن أن يعـيش بمعزل عن العالم لأننا نعيش فى عصر العـولمة فى عالم بلا حدود،وهل يمكن حماية كل شئ فى عالم بلا حدود،إن طائرات التجسس والأقمار الصناعية تنظر إلينا من علٍ ،وهى قادرة على اختـراق كل شئ،ورؤية كل شئ نقوم به،فلم تعد هنـاك خصوصيـة- والمسلمون كما نعلم جميعا أمة فى غاية الخصـوصية- لقد كنا قادرين على عزل أنفسنا ومحاولة ممارسة شـعائرنا الدينية وعـادتنا وقيمنا الأخلاقـية بمعزل عن تأثيـرات الآخرين،ولكن الوضع اليوم اختلف تماما.

ويهيب محاضير محمد بالدول الإسـلامية وحكوماتها أن تتأكد من أن العولمة لن تجعل منهم كـيانا هامشيـا كما فعلت الـثورة الصناعية والعـصر الصناعى,يقول" وهو الأمر الذى لن نقـوى على احتمـاله هذه المرة ،وإذا فقدنا الفـرصة للمرة الثـانية فى أن نضبط خطواتنا وإيقـاعنا مع التغيير الذى يحـدث الآن،ذلك التغيـير الجذرى والسريع والمتطور فى مـجال التـكنولوجيـا والعلوم والتـغيـرات التى يحـدثانها لإدراك العـالم للأشياء والأفكار والمفاهيم الجديدة للإنسانية والعلاقات الدولية ،إذا فاتنا اللحاق بكل هذا وفشلنا فى الإمساك بعلوم العصر فلن نكون كيانا مهمشا فحسب؛ بل نكون كيانا قد هيمنت عليه قوى أخرى بشكل كبير.

كمـا يتعيـن على المسلمين أن يحاولـوا فهم هذه العولمة بشكـل أو بآخر فهـماً لا ننشد معه حمـاية أنفسنا من أخطارنا،ولكن أن نعرف كيف نستفيـد منها حتى نتوازى مع الدول المتطورة فى مجال تكنولوجيا المعلومات والكفاءة الصناعية.

ثم يطرح سـؤالاً : مـاذا نجد وراء العـولمة والمروجـين لهـا ؟ ويجـيب على ذلك بقوله" ظلم شديد للضعفاء أو الدول الفقيـرة من خلال تسلط الرأسمالية وهيمنتها أو ثمة نظامـاً ديمقـراطيا يضـم مـصادر الطاقة الطبـيعـية إليه،جنبـا إلى جنب مع الإبداع الإنسانى لخلق أعظم حضارة فى العالم".

كيف نواجه العولمة؟!

وفى محاولة من السيد محاضير محمد لوصف علاج ناجع لسلبيات العولمة،يرى أنه يجب التخطيط للعولمة بدقة وعناية. وأن يشمل التخطيط كل فرد فى أى جزء من أجزاء المعمورة. كما يجب أن تكون العولمة لخير الناس كل الناس،وعليها أن تبرهن على ذلك عملياً. ويجب أن تطبق العولمة وتنفذ ببطء وروية،مع إعطاء جهد أكبر على الأقل للأطراف النامية فى العالم. ولابد من إعادة مبادئ السوق وأعرافه،فالحصول على الأرباح لا يعتبر خطيئة،إنما أرباح الأغنياء والأذكياء على حساب مجهود الفقراء ،يجب أن يقابل بالعقاب الرادع من قبل المجتمع الدولى.

فضلا عن أنه لابد أن تكون هناك حرية حركة لرأس المال تصحبها حرية فى حركة العمال،ولكن ليس بقرار من الدول المعنية بذلك فحسب. كما يجب أن تزداد إنتاجية العالم وتقل التفاوتات والتباينات بأشكالها المتعددة.

لا أعتقد أننا قادرون على عمل كل هذا فى حياتنا التى نعيشها الآن،ولو كانت أعمارنا مضاعفة. ولكن علينا أن نبدأ. وتكون بدايتنا بالتفكير فيها. التفكير فى العولمة كاقتسام للثروة العالمية فى مادتها الخام،وفى رأس المال ،وفى التكنولوجيا،قسمة عادلة ومتكافئة..هذه هى العولمة فى خدمة الإنسان. حيث إن العولمة يجب أن تخدمنا وليس العكس.

كيف نستفيد من العولمة؟

ويرى محاضير محمد أن التحدى الذى يواجه الدول الفقيرة ومن بينها دول آسيا لا يكمن فى كيفية التعامل مع العولمة ،بل فى تفعيل إمكانات العولمة للإفادة منها،والتحدى فى تأثير الفكر على العولمة،وإعادة تشكيلها ،وتقليل احتمالات الانحراف فى طرق التعامل التى تدمر الآليات الاقتصادية ومن ثم الدول.

وحسب رؤية محاضير للعولمة فليس هناك شئ مقدس لا يمكن تغييره فى مفهوم العولمة الحالية بل يمكن تعديل العولمة جذريا إذا اقتضت الضرورة ذلك،مثل تقليل

المخاطر التى قد تفرزها تجاه الذين يقبلونها ويمارسونها،والتجارة الحرة ليست مرادفاً للعولمة كما يظن البعض بشكل خاطئ.

وبعد.. فقد كانت تلك الإطلالة السريعة على مفهوم العولمة وإرهاصاتها عند السيد محاضير محمد من خلال كتابه الرائع " العولمة والواقع الجديد"الذى غاص من خلاله فى خبايا العولمة ومكنوناتها فكتب عنها بأسلوب لا تنقصه الصراحة.. ولا تعوزه الموضوعية.. وقد كان لعمله كرئيس للوزراء فى ماليزيا لفترة طويلة دور كبير فى فهمه للعولمة كأحد صناع القرار فى العالم لفترة من الفترات ، ولأنه قد لمس تجلياتها بشكل مباشر خاصة فى مجالى السياسة والاقتصاد ، فقد جاء الكتاب ثريا بالأفكار والتحليلات النافعة فضلا عن الإرشادات العلاجية الناجعة.

* * *